في أيّ ِ تاريخ ولد المسيح؟

يختلف المسيحيون الغربيون عن الشرقيين في موعد احتفالاتهم بعيد ميلاد السيد المسيح. فبينما في الغرب هو يوم 25 ديسمبر (كانون الأوّل) عند الكاثوليك والبروتستانت، فانّه عند الأرثوذوكس في الشرق يوم 7 يناير (كانون الثاني) من كلّ ِ عام. والاحتفال الذي يسمى بالإنجليزية «كريسماس» والفرنسية «نويل» أصله «ناتيفيتاس» في اللاتينية. ولم يبدأ الاحتفال بعيد الميلاد إلا منذ منتصف القرن الرابع الميلادي، بعدما تحولّت الدولة الرومانية إلى الديانة الجديدة على يد الإمبراطور قسطنطين. ولا أحد يدري كيف اختير يوم 25 ديسمبر، فقد كان هذا اليوم هو يوم الاحتفال بهيليوس الذي يمثل الشمس عند الرومان قبل ذلك.

المعلومات التي وصلتنا عن حياة المسيح جاءت كلّها من القرآن الكريم وكتب العهد الجديد (الإنجيل)، وهي المصدر الوحيد من تاريخ يسوع تتضمن معلومات محدودة في شأن ميلاده وحياته. ولم يذكر القرآن الكريم أيّ تاريخ سواء لمولد المسيح (عيسى بن مريم) أو لوفاته، كما لم يذكر موطناً ً محدداً ً لميلاده سوى انّه كان «مكاناً ً شرقياً ً» بالنسبة إلى مسكن عائلة أمه مريم. اما أناجيل العهد الجديد الأربعة، فبينما لم يتحدث مرقص ويوحنا عن واقعة الميلاد اختلف متى ولوقا سواء في تحديدهما لتاريخ الميلاد أو لموقعه. فبينما يذكر إنجيل متى انّ مولده كان في أيام حكم الملك هيرودوس، الذي مات في العام

الرابع قبل الميلاد، فانّ إنجيل مرقص يجعل مولده في عام الإحصاء الروماني، أيّ في العام السادس الميلادي. ويقول إنجيل متى بشأن ميلاد المسيح انّه «لما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودوس الملك إذا مجوس من المشرق قد جاؤوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود. فاننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له. فلما سمع هيرودوس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه. فجمع كلّ رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح. فقالوا في بيت لحم اليهودية.. حينئذ دعا هيردوس المجوس سراً وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر. ثم أرسلهم إلى بيت لحم وقال اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي، ومتى وجدتموه اخبروني فلما سمعوا من الملك ذهبوا وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف حيث كان الصبي.. فخرّوا وسجدوا له. ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهباً ولباناً. ثم اوحي إليهم في حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودوس.. وبعدما انصرفوا إذ ملاك الربّ قد ظهر ليوسف في حلم قائلاً، قم خذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك، لأنّ هيرودوس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه.. ولما رأى هيرودوس انّ المجوس سخروا به غضب جداً. فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كلّ تخومها من ابن سنتين فما دون بحسب الزمان الذي تحققه المجوس.. فلما مات هيرودوس إذا بملاك الربّ قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلاً. قم وخذ الصبي وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل. لأنّه قد مات الذين يطلبون نفس الصبي».

ولما كان الملك هيرودوس قد مات في العام الرابع قبل الميلاد فانّ ميلاد المسيح ـ بحسب هذه الرواية ـ لا بد وأن يكون قد حصل قبل هذا التاريخ. اما إنجيل لوقا فيقول: «في الشهر السادس أرسل جبريل الملاك من ا إلى مدينة من الجليل اسمها الناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقال سلام لكِ أيتها المنعم عليها. الربّ معكِ، مباركة أنتِ في النساء. فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنّك وجدتِ نعمة عند ا. وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً تسمينه يسوع. هذا يكون عظيماً.. ويعطيه الربّ الإله كرسي داود أبيه. ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية. فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً. فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك». وعن تاريخ الميلاد يقول لوقا في الاصحاح الثاني انّه «في تلك الأيام صدر أمر من أغسطس قيصر بأن يكتتب كلّ المسكونة. وهذا الاكتتاب الأوّل جرى إذ كان كيرينوس والي سورية. فذهب الجميع ليكتتبوا كلّ واحد إلى مدينته. فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته، ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى. وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد، فولدت ابنها البكر وقمطته واضجعته في المذود (الإسطبل) إذ لم يكن لهما موضع في المنزل».

* ضرائب اليونان

* ونحن نجد هنا انّ تاريخ ميلاد المسيح السادس من العصر المسيحي، فهذا هو وقت أوّل اكتتاب ضرائبي فرضه الرومان على أهل فلسطين. ومع اختلاف عام الميلاد بين الروايتين ليس هناك ذكر في أيهما عن اليوم أو الشهر الذي حدثت فيه الولادة. وعلى هذا فانّ المصدرين الوحيدين لميلاد المسيح بالأناجيل، يختلفان في تحديد تاريخ هذه الواقعة.

وبالرغم من انّنا دخلنا الألف الثالثة للتاريخ الميلادي، ليس لدينا أية معلومات تاريخية مؤكدة عن حياة السيد المسيح نفسه. وكان الاعتقاد السائد فيما مضى هو انّ كتبة الأناجيل سألوا أخباراً ووقائع كانوا هم أنفسهم شهوداً عليها، إلا انّه تبيّن عدم صحة هذا الاعتقاد. فلم يتم كتابة أوّل الأناجيل ـ التي لدينا الآن ـ إلا بعد مرور حوالي نصف قرن من الزمان على الأحداث التي تتكلم عنها، ثم أدخلت عليها تعديلات بعد ذلك خلال القرن الثاني للميلاد.

والقصة كما وردت في أناجيل العهد الجديد تقول أن يسوع ولد في بيت لحم في عهد الملك هيرودوس الذي حكم فلسطين أربعين سنة انتهت بوفاته في العام الرابع السابق للتاريخ الميلادي. ثم هربت السيدة مريم بابنها إلى مصر عقب ولادته خوفاً عليه من بطش الملك، وكانت النبوءات قد دلته على مكان وزمان مولد المسيح الذي سيطالب بعرش داوود، ولم ترجع الأم وولدها من مصر إلى فلسطين إلا بعد موت الملك هيرودوس، حيث ذهبت بالطفل لتعيش في بلدة الناصرة في الجليل (شمال فلسطين).

وتقول الرواية انّه بعد أنّ كَبُرَ الصبي وأصبح في الثلاثين من عمره، ذهب إلى وادي الأردن حيث التقى بيوحنا المعمدان الذي عمده بالماء في وسط النهر. وبعد هذا اعتكف يسوع في خلوة أربعين يوماً صائماً في الصحراء، حيث دخل في صراع مع الشيطان الذي حاول إغراءه بملك ممالك العالم. وعاد المسيح ـ بعدما فشل الشيطان في مهمته ـ إلى الجليل ليختار حواريه الـ12 ويبدأ دعوته، مما آثار حقد الكهنة الصدوقيين اليهود والأحبار الفريسيين عليه. وإزداد غضب الكهنة اليهود على المسيح ـ بحسب رواية الأناجيل ـ عندما جاء إلى مدينة القدس قبل عيد الفصح، ودخل الهيكل وصار يبشر فيه بدعوته متحدياً إياهم. فتآمروا عليه وارسلوا حرساً للقبض عليه ـ بمساعدة يهوذا الاسخريوطي الحواري الذي خانه ـ وكان يستريح مع تلاميذه عند جبل الزيتون بشمال المدينة. أتى به الحراس إلى الهيكل واستمر التحقيق والمحاكمة أمام مجلس الكهنة برئاسة قيافا الكاهن الأكبر طوال الليل. وبعد انتهاء المحاكمة عند الصباح، أخذ الكهنة المسيح إلى بيلاطس البنطي الوالي الروماني على فلسطين، الذي أعاد محاكمته. وحاول بيلاطس الإفراج عنه بمناسبة عيد الفصح لأنّه لم يجد مبرراً لعقابه، لكن رؤساء الكهنة حرضوا الجموع على المطالبة بإعدام المسيح فخضع الوالي لرغبتهم.

* مخطوطات قمران

لقد كان للعثور على مخطوطات البحر الميت المكتوبة بالعبرية والآرامية عام 1947، في كهف بخربة قمران بالضفة الغربية للأردن، آثر كبير في إلقاء الضوء على الحياة في فلسطين عند بداية التاريخ

الميلادي. لأنّ تدوين هذه المخطوطات جرى ما بين القرن الثاني قبل الميلاد ومنتصف القرن الميلادي الأوّل ـ في ذات الوقت الذي عاش فيه السيد المسيح ـ حاول الباحثون العثور على ذكر لحياته وموته بين صفحاتها. والموضوع الذي آثار الجدل حوله منذ نشر مخطوطات قمران، هو علاقة جماعة العيسويين (التي تركت لنا المخطوطات) بالمسيحيين الأوائل.

فبينما تختلف اعتقادات الجماعة عن الاعتقادات اليهودية الارثوذكسية التقليدية، فهي تتفق مع الفكر المسيحي الخاص بالبعث والخلاص.

والسؤال الذي ثار بين الباحثين هو ما هي علاقة «المعلم الصديق» الذي كانت جماعة قمران تعدّ الطريق لعودته، بالسيد المسيح؟ فهو مثله مات على يد الكاهن الشرير ـ الذي يتبعه كهنة هيكل القدس ـ وهو مثله بعث من الموت، وهو مثله ينتظر اتباعه عودته ليهزم الشر في معركة آرماجيدون في نهاية الأيام.

والأمر المحيّر هو انّ هذه الأفكار وجدت مكتوبة في مخطوطات ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد. والاختلاف الجوهري بين جماعة قمران وبين اليهود، يتعلق بالاعتقاد بخلود الروح وبالقيامة والحساب بعد الموت. فحسب ما جاء في مخطوطة «حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام» نجد انّهم كانوا يعتقدون بحتمية الموت وحتمية البعث في نهاية الأيام (يوم القيامة)، إذ يقولون انّ معلمهم الأوّل ـ والذي يطلقون عليه لقب «معلم الصدق» أو «المعلم الصديق» ـ الذي ينتمي إلى سلالة الملك داوود، والذي مات على يد «الكاهن الشرير»، سوف يبعث إلى الحياة من جديد ليقودهم في آخر الأيام. إلا انّ الشر سوف يسيطر قبل أربعين سنة من القيامة فيأتي معلمهم ـ والذي يسمى هنا «أمير النور» ليصارع الكاهن الشرير ـ والذي يسمونه هنا «ملاك الظلام» ـ وفي معركة ذات أبعاد روحية يقضي النور على ملاك الشر ويحرر البشر من سلطته عليهم إلى الأبد، حيث يبدأ البعث والحساب.

وقد كتب الدكتور مصطفى شاهين تحت عنوان : ما هو السبب في جعل ميلاد المسيح في فصل الشتاء؟

الجواب هو مجرد مصادفة إذ حدث، كما يقول الأسقف بارنز أنّ هذا التاريخ 25 ديسمبر قد صادف يوم احتفال كبير بعيد وثني قومي في روما، ولم تستطع الكنيسة أن تلغي هذا العيد ـ بل باركته كعيد قومي لشمس البر فصار ذلك تقليدي منذ هذا الوقت.

وقد تم الاتفاق على الاحتفال بعيد الميلاد في ديسمبر بالنسبة للغربيين بعد مناقشات طويلة حوالي عام 300.